دور المذهب المالكي في تطور الشعر العربي الإفريقي

الدكتور يوسو منكيلا

أستاذ الأدب العربي بجامعة نيامي - النيجر

ملخص المداخلة بالعربية

هذه الدراسة محاولة للإجابة عن سؤال سائد في معظم الأوساط الأدبية العربية وهو: هل للمذهب المالكي دور في تطور الشعر العربي الإفريقي؟ أو هل لإفريقيا شعراء يقرضون شعرهم بالعربية؟ إنها ترمي إلى معرفة المذهب المالكي في إفريقيا الغربية والأدب العربي الإفريقي، الذي هو صورة من صور الأدب العربي باعتبار أن الثقافة الإسلامية التي عاشها الأدباء الأفارقة المسلمون، لابد أن تنجم عنها صلات تربط بينهم وبين مذهبهم المالكي وأدبهم الإسلامي الذي بين أيدينا وذلك وفقا للمؤثرات التي عاشوها.

إن دخول المذهب المالكي وتوغله في غرب إفريقيا، ثم انتشاره فيما بعد في أنحاء المنطقة، يرجع الفضل فيه إلى الفقهاء المرابطين، وعلى رأسهم عبد الله بن ياسين الجدالي، الذي قام بنشاط واسع في سبيل نشر الإسلام السني على مذهب الإمام مالك. ولما كانت حياة الأدب العربي الإفريقي عامة والشعر العربي الإفريقي خاصة مرتبطة بالإسلام أولا، واللغة العربية وثقافتها ثانيا في إفريقيا كان من الضرورة أن يكون الحديث عن المذهب المالكي في إفريقيا المدخل الأول إلى مباحث هذه الدراسة، علما بأن أصول المذهب المالكي مبنية على القرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة، وعمل أهل المدينة وهذا الأصل هو

الذي ينفرد به الإمام مالك عن باقي الفقهاء، ومن ثم الرأي، الذي يشمل عند الإمام مالك جملة من الأصول، يلجأ إليها عندما يفتقر إلى النص.

تهدف هذه الدراسة إذن إلى تناول بعض جوانب المذهب المالكي في الشعر العربي الإفريقي، محاولة ربط المسائل الفقهية المختلفة والمتقاربة التي تناولها الشعراء لإظهار تمسكهم بالمذهب المالكي، وذلك بتسليط الضوء على محاولته الشعرية، واستخدام المذهب المالكي في الشعر العربي في إفريقيا فيما يخص تطبيق المسائل الفقهية المالكية العامة.

وقد قسمت هذه الدراسة على مدخل، ومباحث أربعة، وخاتمة، كان المبحث الأول عرضا لحالة اللغة العربية في إفريقيا، والمبحث الثاني تناول الهوية الإفريقية الإسلامية، والمبحث الثالث دار حول الشعر العربي الإفريقي، والمبحث الرابع ارتكز الكلام فيه عن دفاع الشعر العربي عن الهوية العربية الإسلامية، ومن ثم سجلت في الخاتمة أهم المستجدات التي توصلت إليها.

ملخص المداخلة بالفرنسية

La contribution de la doctrine malékite dans le développement de la poésie arabo-africaine.

Les axes importants de cette intervention sont :

- Le rôle de la doctrine malékite dans le développement de la poésie arabo-africaine qui est elle-même une forme de la poésie arabe émanant du fait que les poètes africains ont aussi adhéré à la doctrine malékite et s'en sont imprégnés.

- L'importance de l'invasion / l'entrée de la doctrine malékite à l'ouest africain surtout à travers les jurisconsultes morabitines qui, à leur tête abdellah Ben Yassine Jaddali, ont propagé l'islam sunnite à l'image de la doctrine malékite.

- Cette l'intervention met l'accent sur la langue arabe en Afrique, sur l'identité africaine islamique, sur la poésie arabo-africaine et enfin sur la défence de l'identité arabo-musulmane par la poésie arabe.

ملخص المداخلة بالانجليزية

The Contribution of the Maliki School of Jurisprudence in Developing Afro-Arab Literature

This paper is an answer to a question which has prevailed the Arabic literature milieu : did Maliki doctrine play any role in the developement of Afro-Arabic poetry ? In other words are Africans indebted to Arab as far as poetry is concerned ?.

this paper deals with the presence of Maliki doctrine in Afro-Arabic poetry. therfore, it is divided into four main parts .the part is an exposition of the state of Arabic language in Africa.the second part deals with Islamic African identity.the third part is restricted to Afro-arabic poetry. the fourth part focus on Arabic s poetry s defence of Islamic Arabic identity. And at last a conclusion of the most deductions.

دور المذهب المالكي في تطور الشعر العربي الإفريقي

محاور الموضوع

- تمهيد
- المبحث الأول: عوامل انتشار المذهب المالكي في غرب أفريقيا
- المبحث الثاني: مراكز إشعاع المذهب المالكي في غرب أفريقيا
- المبحث الثالث: طبيعة الشعر العربي الأفريقي
- المبحث الرابع: مساهمة المذهب المالكي في تطور الشعر العربي الأفريقي
- الخاتمة ونتائج البحث

تمهيد

هذه الدراسة محاولة للإجابة عن سؤال يتردد في نفوس الكثيرين وما زال يتردد في معظم الأوساط الأدبية العربية، وهو: هل للمذهب المالكي دور في تطور الشعر العربي الأفريقي؟ أو هل لأفريقيا شعراء يقرضون شعرهم بالعربية؟ إنها ترمي إلى معرفة المذهب المالكي في أفريقيا الغربية والأدب العربي الأفريقي، الذي هو صورة من صور الأدب العربي باعتبار أن الثقافة الإسلامية التي عاشها المسلمون الأدباء الأفارقة لا بد أن تنجم عنها صلات تربط بينهم وبين مذهبهم المالكي وأدبهم المالكي الإسلامي الذي بين أيدينا، وذلك وفقا للمؤثرات التي عاشها الأدباء الأفارقة المسلمون.

إن دخول المذهب المالكي وتوغله في غرب أفريقيا، ثم انتشاره فيما بعد في أنحاء المنطقة يرجع الفضل فيها إلى الفقهاء المرابطين، وعلى رأسهم عبد الله بن ياسين الجدالي الذي قام بنشاط واسع في سبيل نشر الإسلام السني على مذهب الإمام مالك - رضي الله عنه -.

ولما كانت حياة الأدب العربي الإفريقي عامّة والشعر العربي الإفريقي خاصة مرتبطة بالإسلام أولا، واللغة العربية وثقافتها ثانيا في إفريقيا، كان من الضرورة أن يكون الحديث عن المذهب المالكي في إفريقيا المدخل الأول إلى مباحث هذه الدراسة، علما بأن أصول المذهب المالكي مبنية على القرآن الكريم، والسنة النبوية الطاهرة، وعمل أهل المدينة، وهذا الأصل هو الذي ينفرد به الإمام مالك عن باقي الفقهاء، ومن ثم الرأي، الذي يشمل عند الإمام مالك بن أنس جملة من الأصول، يلجأ إليها عندما يفتقر إلى النص.

تهدف هذه الدراسة إذن إلى تناول بعض جوانب المذهب المالكي في الشعرالعربي الأفريقي محاولة ربط المسائل الفقهية المختلفة والمتقاربة التي تناولها الشعراء الأفارقة لإظهار مدى تمسكهم بالمذهب المالكي، وذلك بتسليط

الضوء على محاولاتهم الشعرية، واستخدام المذهب المالكي في الشعر العربي في أفريقيا فيما يخص تطبيق المسائل الفقهية المالكية العامة.

وقد قسمت هذه الدراسة على تمهيد ومباحث أربعة وخاتمة، كان المبحث الأول عرضا لعوامل انتشار المذهب المالكي في غرب أفريقيا، والمبحث الثاني تناول مراكز إشعاع المذهب المالكي في غرب أفريقيا، والمبحث الثالث طبيعة الشعر العربي الأفريقي، والمبحث الرابع ارتكز الكلام فيه عن مساهمة المذهب المالكي في تطور الشعر العربي الأفريقي، ومن ثم سجلت في الخاتمة أهم المستجدات التي توصلت إليها.

المبحث الأول: العوامل التي ساعدت على انتشار المذهب المالكي في غرب أفريقيا

هناك العديد من العوامل التي تضافرت وتفاعلت، فأدت إلى انتشار هذا المذهب في أنحاء غرب أفريقيا وإجماع سكانها عليه، يحاول هذا البحث عرض الأهم منها، وهي:

1- الرحلة في الاتجاهين

- *الاتجاه الأول*: يتمثل في رحلة عدد كبير من علماء غرب أفريقيا في طلب العلم، ولم يكتفوا بالدراسة في بلاد السودان على أيدي أساتذتها المحليين، بل كان الكثيرون منهم يقومون – بعد حفظ القرآن وتعلم الفرائض والسنن والمستحبات على الأساتذة السودانيين برحلة واسعة إلى معاهد فاس ومراكش والقيروان وتلمسان وغيرها من معاهد وجامعات شمال أفريقيا لإتمام تعليمهم ولاتصال بمن يحفظ ويحمل الفقه، أو يتوجهون إلى مصر، والحجاز للدراسة وأداء الحج.

ومن العلماء السودانيين الذين رحلوا في طلب العلم إلى فاس وتلمسان والقيروان وغيرها من المراكز الإسلامية في شمال أفريقيا والمشرق (مصر والحجاز) ثم عادوا إلى بلادهم بعد ما نهلوا من العلوم والمعارف المزدهرة في

تلك البلاد، وساهموا في نشر المذهب المالكي:

ا - أبو عباس أحمد بن عمر بن محمد أقيت: رحل إلى المشرق سنة هـ/1485م، لقي بها جماعة من العلماء، منهم: الفقيه جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، وشمس الدين اللقاني[1] وأخوه ناصر الدين [2] وغيرهم، أخذ عنهم العلم واستفاد منهم، ثم رجع إلى بلاد السودان للتدريس، ونفع به كثير. توفي سنة 942هـ/ 1535م.

ب - محمود بن عمر بن محمد أقيت: الذي رحل إلى المشرق وحج عام 915هـ/1509م ولقي بعلماء عصره بمصر والحجاز، كالفقيه إبراهيم بن محمد المقدسي، والفقيه زكرياء بن محمد بن أحمد الأنصاري، والفقيه إبراهيم بن علي بن أحمد القلقشندي، وغيرهم من كبار أهل العلم وأئمة ذلك العصر، ثم عاد إلى بلده (تمبكتو). واستفاد منه الناس حتى توفي.

ج - مخلوف بن علي بن صالح البلبالي: رحل إلى المغرب لطلب العلم سنة 1512م وتتلمذ علي الفقيه أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد المشهور بابن غازي المتوفي عام 919هـ/ 1513م وغيره من علماء المغرب، ثم رجع إلى السودان الغربي ، وزار مدن «كانو» (kano) و«كتشينا» (kastina) و«أغادس» (agadez) و«تمبكتو» (tombouctou) وغيرها للتدريس، فاستفاد منه أهلها من كل أفريقيا.

د - العقب بن عبد الله الأنصمني: سافر إلى المشرق، فحج، وتتلمذ على جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، وغيره من جهابذة علماء عصره. ثم عاد إلى

1- هو الفقه المالكي محمد بن حسن بن علي المعروف بشمس الدين اللقاني، نسبة إلى لقانة من قرى مصر، ولد عام 857هـ/1453م، وتوفي سنة 935هـ/ 1528م.
وكان أكثر ما يدرس مختصر خليل بن إسحاق.انظر:
نيل لابتهاج بتطرير الديباح لأحمد بابا التمبكتي، ص335، طبع بهامش كتاب الديباح المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون، مطبعة السعادة، القاهرة ، 1329هـ

2- هو الفقه المالكي ناصر الدين بن حسن اللقاني المتوفي عام 958هـ/1551م .
انظر: نيل لابتهاج، ص336-337ز

بلاده «تكدة» (taghada) وكرس للتدريس ولإفتاء والقضاء بين الناس. توفي سنة 950هـ/ 1543م[1].

هـ- القاضي العاقب بن محمود بن عمر بن محمد أقيت: رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج وطلب العلم، فحج وتتلمذ على الفقيه المالكي ناصر الدين اللقاني والتاجوري[2] وغيرهما، فأجازاه إجازة عامة، ثم رجع «تمبكتو» (tombouctou)، وكون بدوره عددا من طلاب العلم.

كل هؤلاء يعبرون الصحراء ذهابا وإيابا، وتحملوا المشاق من أجل المعرف والتعليم.

- أما الاتجاه الثاني، فهو: وفود عدد كبير من أعلام المذهب المالكي من شمال أفريقيا والأندلس والمشرق إلى غرب أفريقيا، وأخص بالذكر رحلة عدد كبير منهم إلى «تمبكتو» (tombctouou) «كانو» (kano) و«كتشينا» (kastina) و«أغادس» (agadez) وغيرها من حواضر غرب أفريقيا للتدريس والإفتاء في مساجدها وجامعاتها، فاستوطنها بعض منهم نهائيا، وكان لهؤلاء الأعلام أثر فعال في نشر المذهب المالكي بين أهالي بلاد السودان الغربي، وذلك عن طريق طلاب العلم الذين كانوا يحضرون في حلقات دروسهم، ثم يشيعون ما حفظوا بين أهلهم. وقد ذكر المؤرخون وعلماء التراجم أسماء عديدة من الفقهاء المالكيين الذين خرجوا لأفريقيا الغربية، نذكر منهم:

ا – محمد الصديق البناني النفزاوي: وهو أول من توغل داخل الصحراء إلى غرب أفريقيا، وذلك منذ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)[3].

ب – الفقيه أبو حسن علي بن يخلف النفوس: قدم إلى مملكة غانه عام 575هـ/ 1179م للتجارة والتدريس، وزار مدينة مالي (mali)، فسمع به ملكها

1- نيل الابتهاج، ص 217-21.

2- هو الفقيه المالكي عبد الرحمن بن الحاج أحمد المعرف بالتاجوري، نسبة إلى قرية تاجور قرب طرابلس اليوم.

3- عبد العزيز بن عبد الله: معلمة الصحراء، ص191، الدار البيضاء، الرباط، 1396هـ/ 1976م.

وأحضره إليه، فاختبره، وأسلم على يديه هو ورعيته وذلك عام 1180م، ومن استخلفه وأصبح يشاوره في كل أموره.

ج – الفقيه أبو الحسن علي بن أحمد الأنصاري: الذي رحل من الأندلس إلى غرب أفريقيا في عهد السلطان منسا موسى (712 – 738هـ/1312 – 1337م)، ودرس أهلها، ثم انتقل إلى القاهرة، وبها توفي سنة (724هـ/ 1323م).

د – محمد بن يوسف الغماري: المعرف بالزياتي. رحل إلى الجهة ذاتها، وأقام بها للتدريس إلى أن توفي بمدينة «جني» (djenne) سنة (992هـ/1584م)[1].

وغيرهم من أعلام المذهب المالكي الذين وفدوا على غرب أفريقيا إحساسا منهم بواجبهم تجاه إخوانهم في هذه بلاد، وكل فقيه من هؤلاء الفقهاء تتلمذ عليهم عديد كبير من طلاب العلم، قاموا بدورهم في نشر المذهب المالكي ربوعها.

2 – المكانة الاجتماعية للفقهاء

من العوامل التي ساعدت على انتشار المذهب المالكي في أنحاء غرب أفريقيا المكانة الاجتماعية للفقهاء المالكيين، فقد ذهب أغلب المؤرخين إلى أن هؤلاء الفقهاء كانوا يحظون باحترام كبير، سواء من الأهالي أو السلطة، وعندما يتحدث أحمد بابا في كتابه «نيل الانتهاج»[2]، والقاضي محمود كعت في تاريخ الفتاش[3] والسعدي في تاريخ السودان[4] عن القاضي وسلطته في عهد ملوك السودان، يخيل للباحث أن سلطة القاضي كانت أعلى من سلطة الملك نفسه في عهد الإمبراطورية سنغاي.

1- ابن القاضي المكناسي:دورة الحجال في أسماء الرجال، رقم 698، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، مطبعة النسة محمدية بالقاهرة،1971م

2- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص218 و 343 – 344.

3- تاريخ القتاش، ص121 – 124.

4- تاريخ السودان، ص33 – 118.

3 - العناية التامة بالطلبة واحترامهم

جاء على لسان غير واحد من المؤرخين أن طلبة العلم في السودان الغربي كانوا يتمتعون برعاية تامة وعناية كبيرة من قبل السلاطين والملوك، بل وحتى من قبل الرعية، وخاصة الغرباء والأفاقيين منهم، كانوا يتلقون المساعدات من تجار المدن التي كانوا يقصدونها للدراسة وأخيارها، ويقدم لهم الطعام والكسوة من أموال الأوقاف المخصصة لهم، أو صناديق المحاكم الشرعية، وهذا شأنه عن يشجعهم على طلب العلم والتسابق إليه والسعي وراءه ما دامت حياتهم ميسرة.

4 - ورود الكتب بكميات كبيرة على أسواق المدن الكبرى

لقد وردت كميات كبيرة من الكتب في المدن الكبرى بغرب أفريقيا، حيث أقبل عليها العلماء والطلاب والأمراء الذين كانوا يعملون على تأسيس المكتبات الخاصة، حتى حفلت خزائن مدن السودان الغربي بكل ما كان معروفا من كتب المالكية وغيرها من الكتب في مختلف الفنون، وقد تصل مكتبة العالم الواحد منهم إلى ألفي كتاب، وكانوا لا يبخلون على طلاب العلم بشيء منها[1]، وينبغي الإشارة هنا إلى أن الكتب التي وجدت رواجا في غرب إفريقيا هي نفس الكتب المتداولة في شمال إفريقيا والأندلس والمشرق (مصر والحجاز) ومن أهم هذه الكتب كما جاء في تراجم الفقهاء والعلماء: كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس في الحديث والفقه، والمدونة في فقه إمام مالك لقاضي القيرواني سحنون المتوفى سنة (241هـ/855)، والرسالة لابن أبي زيد القيرواني المتوفى عام (386هـ/996م) وغيرها من الكتب.

5 - مساندة الملوك للمذهب

ترعرع المذهب المالكي في غرب إفريقيا تحت رعاية بعض الملوك الذين

1- تاريخ السودان، ص 42، 44

أعطوا عناية خاصة لهذا المذهب وأكرموا أعلامه، واعتمدوا عليهم في إدارتهم وأحكامهم، وشجعوهم على البذل والعطاء، وسهلوا لهم مهمتهم بطرق متعددة كما حرص هؤلاء الحكام على إرسال البعثات العلمية إلى شمال إفريقيا للتعمق في العلوم الإسلامية على مذهب السادة المالكية، وكان أعضاء هذه البعوث يحتلون مراكز قيادية هامة حين يعودون إلى بلادهم، فمنهم الأئمة في المساجد والجامعات ومنهم القضاة والمعلمون.

لم يكن نشاط ملوك غرب أفريقيا مقتصرا على ما تم عرضه، بل علاوة على ذلك، اهتموا اهتماما شديدا باستخدام الفقهاء المالكيين من الحجاز ومصر وشمال أفريقيا لترسيخ المذهب المالكي في ربوع غرب أفريقيا، قد استخدم منسا موسى، وهو ملك من ملوك إمبراطورية مال[1] معه أثناء عودته من أداء فريضة الحج عام (726هـ/1325م) عددا من الفقهاء المالكيين هم:

1- أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الساحلي الغرناطي.

2 - القاضي أبو العباس الدكالي.

3 – القاضي عبد الرحمن التميمي.

4 – الفقيه أبو عبد الله بن خديجة الكومي.

ولم يكتف هذا السلطان العظيم الشأن باستخدام الفقهاء فحسب، بل عمل على شراء عدد كبير من الكتب الدينية الخاصة بفقه مذهب الإمام مالك - رضي الله عنه -، من الحجاز ومصر وشمال أفريقيا، أثناء حجه، وذلك لتعزيز المراكز العلمية في أنحاء مملكته.

المبحث الثاني: مراكز إشعاع المذهب المالكي في الغربي الأفريقي

هذه المدن عبارة عن المدن الكبرى التي ازدهرت فيها الحياة العلمية

1- كان هذا السلطان مالكي المذهب.

إبان العصور الوسطى والحديثة، وكثرت فيها المساجد والجامعات والمعاهد، واستنبطت الكثير من علماء العالم الإسلامي وطلاب العلم والمعرفة. وقد قامت في السودان الغربي مراكز علمية مهمة بعد استقرار الإسلام في تلك المنطقة وفي مقدمتها: أوغشت (Aoudaghoste) وولاته (Walata) ونيما (Nema) في جمهورية موريطانيا الإسلامية حاليا، وتمبكتو (Toumbouctou) وغاو (Gao) في جمهورية مالي حاليا، وبوندوكو (salla Koumbe)، وكونغ (Kongue)، وأودينية (Aoudinia) في جمهورية ساحل العاج حاليا، ودنكاراي (Danka-rai) وتيمبو (timbou) وكانكان (Kankan) ولابه (WaLabe) في جمهورية غينيا حاليا، وكولاك (Kaoulaka) وتوبه (Aouba) وسيلا (Silla) في جمهورية السنغال حاليا، وكانو (Kano) وكاتشينا (katsina) وسوكوتو (Sokoto) في جمهورية نيجيريا الاتحاد حاليا، ووال (Wal) في جمهورية غانا حاليا، وأغادس (Agadez) وتكدة (Taghada) في جمهورية النيجر حاليا، ودوري (dori) في جمهورية بوركينا فاسو حاليا، بل وصلت بعض معاهد هذه المدن إلى مستوى المعاهد المشهورة في ذلك الوقت[1]، وسأكتفي في هذا البحث بعرض أشهر هذه المراكز، وهي:

1- أودغشت (aoudaghoste): كانت هذه المدينة مركزا ثقافيا ومنارة للتقدم العلمي منذ وقت مبكر، فهي أقرب مدن السودان إلى المغرب، حيث توجد مدينة «أغمات» ثم مدينة «فاس» التي كانت مركزا للإشعاع الثقافي بالمغرب وأفريقيا الغربية.[2]

2 – تكدة (Taghada): تقع هذه المدينة في شمال جمهورية النيجر حاليا، وكانت تعتبر في أيام عزها مركزا دينيا وتجاريا هاما يلتقي فيه المغاربة والمصريون والسودانيون،[3] ويبدو أنها قد بلغت أوج ازدهارها العلمي في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، وقد صادف مجيء الفقيه المالكي: أبو عبد الله

1 - أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، ص 142.

2- الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي من 400هـ إلى 1100هـ ص46 – 47.

3- Culture et civlisation islamique: le Niger,p 94.

عبد الرحمن بن عبد الكريم المغيلي الذي قدم إلى مدينة «تكدة» في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي.

3 - تمبكتو (toumbouctou): تأسست هذه المدينة على الأرجح في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، بأيدي الطوارق (touareg) المسلمين، واكتشفها سنغاي، فسيطر عليها، واتخذها العاصمة الثقافية للأمبراطورية، ثم أقام فيها المسلمون من كل مكان.

وسرعان ما أصبحت هذه المدينة سوقا للتجارة، يلتقي فيه البائع والمشتري من أهل المناطق المجاورة، ومركزا للثقافة الإسلامية في السودان الغربي كله.

4 – جني (djenne) تقع هذه المدينة على مرحلة من الضفة اليسرى لنهر «باني» (bani) أحد روافد نهر النيجر، وأسست قبل مدينة تمبكتو بوقت بعيد، في أواسط القرن الثاني الهجري، على أن أهلها كانو في ذلك العهد وثنيين، ولكنهم مع مرور الزمن بادروا إلى دخول الإسلام، وتوافد عليها العلماء، وأسسوا فيها مساجد، واتخذوا مدارس لتعليم الأهلي القرآن الكريم والعلوم الإسلامية.

5 – كاتشينا (katsina): تقع هذه المدينة فيما يسمى اليوم بجمهورية نيجيريا الشمالية، ورغم دخول أهلها الإسلام متأخرين (القرن الرابع عشر الميلادي). ظلت مدينة «كاتشينا» على ازدهار علمي إلى أن استولى عليها الاستعمار البريطاني، وكان أشهر علمائها الذين قاموا بدور بارز في نشر المذهب المالكي وظهر أثرها جليا في الدعوة والإصلاح في مدار س كاتشينا وجامعاتها:

- عبد الله بن محمد الفولاني.
- محمد بن أحمد التاذختي.
- محمد بن الصباغ الكاتشيناوي.
- أبو عبد الله محمد بن منساني.

6 – كانو (kano): تعتبر هذه المدين من أهم المراكز العلمية في السودان الغربي، وهي كسالفتها، تقع في جمهورية نيجيريا الشمالية اليوم.

وتبوأت مدينة «كانو» مركزا ممتازا كمدينة علمية في السودان الغربي، خاصة بعد اضمحلال شأن مملكة سنغاي الإسلامية، امتدت لتكون مقرا للعديد من العلماء والفقهاء الذين هربوا من «تمبكتو» وغيرها من المراكز العلمية الكبرى في مملكة سنغاي، فأصبحت نتيجة لذلك كعبة للمدن والدول المجاورة لها، يشدون إليها الرحال للأخذ والتعمق في العلوم[1].

7 – كومبي صالح (salleh koumbe): وهي عاصمة مملكة غانا الإسلامية، تقع على بعد حوالى 205 كم إلى الشمال من مدينة باماكو» (Bamako) ضمن أراضي جمهورية مالي الحالية.

8 – ولاته [2] (walata): وهي مدين صحراوية، تقع على بعد 150ميلا إلى الشمال الشرقي من مدينة «كومبي صالح» وعلى شمال غربي مدينة «تمبكتو». أنشأها المسلمون الجافلون من أهل مملكة غانه، على إثر هجوم «الصوصو» عليهم، وذلك سنة (1203م)، وموقعها اليوم إلى الجنوب من جمهورية موريطانيا الإسلامية.[3]

كانت هذه المدينة في أواسط القرن الرابع عشر الميلادي من أهم المراكز العلمية في مملكة مالي الإسلامية، بل وأكثرها ازدهارا، يؤدها العلماء والفقهاء والطلبة الذين كانوا يقصدون مساجدها للتعمق في العلوم الإسلامية، ثم يعودون إلى بلدانهم لنشر ما تلقوه من العلوم[4].

1- الأوضاع الثقافية في نيجيريا، ص 219 – 220.
2- وردت هذه المدينة في رحلة ابن بطوطة باسم «إيوالاتن». انظر رحلة ابن بطوطو ص 677 .
3- تاريخ غرب أفريقيا، ص 51.
4- تاريخ السودان، ص 21.

المبحث الثالث: طبيعة الأدب العربي الإفريقي

يتفاوت انفعال الناس مع الطبيعة بمقدار ما يهبهم الله من حس التذوق ومن القدرة على التصور والتمثل وعلى التصوير والتمثيل، وينسجم ذلك كله مع أمزجتهم ومع ظروف حياتهم المادية والفكرية والفنية[1].

والطبيعة أوسع منابع الجمال غنى في الكون، فهي ملهمة كل فنان، وهي مصدر الوحي في معظم الآثار الفنية، سواء أكانت شعرا أم نحتا أم موسيقى[2].

الحديث عن الأدب العربي الإفريقي حديث عن الإسلام، وعائه اللغوي والمعنوي نتيجة العوامل التي ساندت على بروز هذا الأدب في إفريقيا من جهة، وصوب الانتاجات الأدبية بكافة أشكالها في مصب إسلامي وفني من جهة ثانية، ومن المرابيع التي مارس فيها الأدب حياته الطفولية ليخرج منها بتربية ضربت على هيكله سياجاً وحصناً حصيناً لكل ما يمارس بالأدب خارج نطاق الدين ثالثاً، وذلك أن الأدب نبعة من نبعات الحياة، وخفقة من خفقات الإنسان، وتعبير عن وجوده وحياته ونشاطه وبيئته وكونه، وواقعه وعالمه، وعاطفته وشعوره، وفكره وتصوره.[3]

وعندما نختار أبا إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي 550هـ على طراز نموذجي كشخصية من المتوقع أن يكون هو الرائد للشعر العربي الإفريقي بشهادة بعض نقاد العرب، مثل محمد بن شريفة الذي ألحقه بأغربة العرب المشهورين، وعلى الرغم مما بات فيه إنتاجه الشعري من ضروب العبث والانتحال؛ فإن ما تبقى على قلته يمثل قوة ما يتمتع به الرجل العالم أو الأديب من عاطفة شعرية جياشة، وقدرته على تشخيصها في قوالب تصويرية بعيدة

1- ينظر في: الصنوبري شاعر الطبيعة، د.عبد الرحمن عطية، الدار العربية للكتاب ـ ليبيا ـ تونس 1981 ص: 69.

2- ينظر في: شعر الطبيعة في الأدب العربي، د.سيد نوفل 1945م ص: 140.

3- ينظر في الأدب الإسلامي، إنسانيته وعالميته، د. ص:19.

كل البعد عن طابع التكلف الذي غالباً ما يوقع صاحبه في التقليد الأعمى، ففي بيتيه المشهورين اللذين مدح فيهما الملك يوسف بن تاشفين عند ما حل ضيفاً على هذا الأخير فأكرمه، يقول :

أزال حجابه عني وعيني   تراه من المهابة في حجاب
وقربني تفضله ولكن   بعدت مهابة عند اقتراب

تتجلى لنا بوضوح قوة العاطفة الشعرية، ومن ثم وجوه البلاغة التي من النادر أن تجتمع بشكل كهذا في حدود بيتين من الشعر، ففي المستوى الموسيقي فإن البحر المستخدم وهو البحر الوافر يناسب تماماً غرض المدح في الشعر العربي وتظل الحروف في مستواها الصوتي تلائم الظرف العام والجو السائد، فحرف الباء الذي اتخذ في القافية كروية لا ينافي وموقف المدح الذي يتطلب نوعاً من الشعر بالقوة والمهابة في شخصية الممدوح، وفي المستوى المعجمي تبقى الألفاظ المستخدمة سهلة في متناول الجميع، وليس ثمة لفظ يستند الكشف عن معناه في صورته اللغوية إلى أي جهد يذكر، غير أن هذا لا ينفي القوة الفنية في ثنايا البيتين، فالمعجم اللغوي لا يتطلب ما يثقل السمع للوصول إلى ما ينشد من قيمة الشعر، وتستقر الصورة البلاغية في أبهى حلتها عندما نراه يستخدم كلمة الحجاب مرتين من البيت الأول؛ وتنحو الكلمة في المرة الأولى نحو النفي في حين تأخذ في الأخرى طابع الثبوت والاستقرار، هذه المعركة الانعكاسية في التقدم التدريجي التي تعرف في فن البلاغة -الجناس- قد أذيل الحجاب في صورته الظاهرية ومن قبل من يتمتع بالسيطرة والنفوذ، ويبقى نفس الحجاب بكامن طابعه في صورته المعنوية وعند من يسيطر عليه ويحكم من أجل ظاهرية المهابة والمنزلة التي يحتلها المسيطر وهو الملك.

1- ينظر في:إبراهيم الكانمي، أنموذج مبكر للتواصل الثقافي بين المغرب وبلاد، محمد بن شريفة، منشورات معهد الدراسات الإفريقية بالرباط، ص:12.

وفي إسناد تقريبه إلى تفضل الملك مجاز، فالفضل بمفرده لا يقرب ولا يبعد، وإنما صاحبه هو المقرب والمبعد، وإنما عدل إلى ذلك بيتين أن الملك ذو فضل وإنعام، وأن هذا التقرب ليس إلا من باب الفضل والإنعام لا من باب الحق والواجب. ويبدو البيت الأخير في صورة غريبة جمعت بين نقيضين، فهو قريب من الملك من حيث الموقف المادي وسماحة الملك، وبعيد في نفسه عن الملك من حيث مهابته له وتوفير لمكانته والاعتزاز بشرفه وعلو منزلة.

ومن جيد شعره قوله يمدح أبا إسحاق إبراهيم بن يعقوب :

ما بَعْدَ بابِ أبي إسحاقَ منزلةٌ يسمو إليها فتًى مثلي ولا شرَفُ
أَبَعْدَ ما بَرَكَتْ عنسي بساحته وصرتُ مِنْ بَحْرِه اللُّجِيِّ أغترِفُ
هَمُّوا بِصَرْفِي وقَدْ أَصْبَحْتُ مَعْرِفَةً فكيف ذلك واسمي ليس ينصرِفُ

وواضحٌ من هذه الأبيات أن الشاعر مُتمَكِّنٌ، ويمتِلك من أدوات صناعة الشعر ما يمتلِكه أمثالُ المتنبّي وابن الروميّ والبحتريّ وغيرهما، ومع ذلك، فإنّ ما تركه هو وغيره من شعراء إفريقيا السوداء من روائع الشعر وعيونه، لم يحْظَ بشرفِ الانضمام إلى التراث الشعري الضخم الذي يحفلُ به تاريخُ الأدب العربي، ولم يجد له مكانًا من بين عيون الشعر العربي الذي يُدَرَّسُ في المدارس والجامعات، بل إن مؤرِّخي الأدب العربي لا يُدْرجونه بين الأعمال الأدبية الرائعة التي يحفل بها التراث العربي الإسلامي، ولقد أدَّى ذلك كلُّه إلى وجود فجوة في تاريخ الأدب العربيِّ أفقدت هذا الأدبَ تكامُلَه وتنوعَه وثراءَه، بل وأدَّت إلى طمس بعض معالمه العالمية.

والواقع أنَّ انقطاعَ الصلة بين علماء القارة الإفريقية وأدبائها ونظرائهم في المشرق والمغرِبِ العربيين، أدَّى إلى أن ينموَ الشعر العربي الإفْريقِي نموًّا ذاتيًّا داخل بيئته القديمة، وضمن بنيته الفنية التقليدية، فالصِّلات العلمية التي تزامنت مع الصِّلات التجارية إبَّان ازدهار الممالك الإفريقية لم تستمرَّ

في ربط شمال القارَّة بجنوبها على الرغم من حصول نوعٍ من التحسُّن في مجال الاتِّصالات ناتجٍ عن الكشوف الجغرافية والاختراعات العلمية.

ولا شَكَّ في أنَّ العالمَ العربيَّ استطاع أن يحافظَ على تراثه العلمي، رغم الغزو الثقافي الذي تعرَّض له عبر التاريخ، فنشطتْ فيه حركةٌ علميةٌ وأدبيةٌ واسعة النطاق، شملت ليس فقط مجالَ المحافظة على الهويّة العربية الإسلامية، وإحياءِ اللغة العربية، ولكن أيضا، شملت مجالَ جمع التراث العلمي الذي خلَّفه الأجداد، وتحقيقِه ونشرِه بمختلف الوسائل والطرق.

إلاّ أنَّ هذه النهضةَ العلميةَ المباركةَ لم تأخذ في الاعتبار الأدبَ الإفْريقِي كتراثٍ قيِّمٍ لا يقلُّ أهميَّةً عن الأدب العربي الأندلسي، وكان ـ مثله ـ قد نشأ في مناخٍ غيرِ عربيٍّ، وفي بيئةٍ جغرافيةٍ غير عربيةٍ كذلك، ولقد ظلّ هذا الإنتاجُ الضخمُ مدوَّنًا في مخطوطات قديمة لم تستطع مقاومةَ الزمان طويلا، فذهب الكثير منها ضحيَّةً للضياع أو الحرائق أو التلف، وبقي القليل منها مُتَفَرِّقًا لا يضُمُّه مكانٌ.

ولم يَحْظَ ـ في الواقع ـ أيُّ إنتاجٍ علميٍّ عربيٍّ إفريقيٍّ باهتمام الباحثين العرب وعنايتهم، ولم تَجْرِ محاولةٌ لإدراج روائع الشعر العربي الإفْريقِي ضمن النصوص الأدبية التي تُدَرَّس في الأدب العربي، ولا يتضمَّن تاريخُ هذا الأدب إشارةً إلى ما أنتجه الأفارقة من أعمال أدبية تمثل حلقة مُهِمَّةً من سلسلة الأعمال العظيمة التي خلَّفها رجالُ الأدب العربي على امتداد التاريخ.

ومهما يكن من أمر، فمن الواضح أنَّنا لا نعدم من بين شعراء العربية الأفارقة مَن كانوا لا يقلُّون عن المتنبي والبحتري وابن الرومي شاعريَّة، ويملكون من أدوات صناعة الشعر مثل ما ملك أولئك، ومن العاطفة والتخيُّل ما كانوا يتوفَّرون عليه، ومن الدوافع إلى قول الشعر ما كان يدفعهم إلى ذلك، وإن كانوا يفتقرون إلى بعض الشروط اللازمة لصقل الموهبة الشعرية، وتوسيع آفاق التعبير، وترويض ملكة الشعر.

ولا ينكر أحد مقدارَ العناية والاهتمام اللذين توليهما المؤسسات العلمية في الغرب بحملة الثقافة الغربية من الأفارقة، فبالإضافة إلى التسهيلات التي يجدها الأديب الإفْريقِي في مجال التعريف به، ونشر أعماله الأدبية، توجد عناية خاصة بالموهوبين منــهم، لدرجة أنَّ شاعرا إفريقيا، مثل (لِيُوبُولْد سِيدَارْ سِنْغُورْ)، يحظى بشرف الانضمام إلى عضوية الأكاديمية الفرنسية، وهو شرف لا يطمحُ إليه من الفرنسيِّين أنفسِهم إلا عددٌ قليلٌ، ولا شَكَّ في أنّ فرنسا لا تقوم بمثل هذا التقدير من أجل سواد عيني سنغور، وإنما لكونه من الذين أسهموا في توطيد أركان اللغة الفرنسية في غرب إفريقيا.

ونعتقد بأن رجال الأدب العربي لفي أمسِّ الحاجة إلى إعادة صياغة تاريخ الأدب العربي، وجدولة عصوره المختلفة، وتتبُّع مساره الجغرافي ليشمل المناطق التي طرقها بالفعل عبر التاريخ، وذلك بهدف العرض الموضوعيِّ له، ولا بدَّ من إدراج ما ثبتت جودتُه من الإنتاج الشعري العربي الإفْريقِي في قائمة الروائع الأدبية التي أنتجها عباقرة الشعر، ويتم ذلك خلال دمج طبيعي له مع هذه الروائع، يُراعَى فيه التسلسل التاريخي، أو تجانس المضمون والأغراض، ولا بد من إيجاد عنوان ثابت للشعر العربي الإفْريقِي تُدْرَسُ تحته عيونٌ مختارةٌ من إنتاجات شعراء إفريقيا، فإغفال هذا الإجراء جناية على الأدب العربي الأفريقي الإسلامي الذي يعتبر ـ بحق ـ من المكاسب الثمينة التي لا ينبغي التفريط فيه.

المبحث الرابع: مساهمة المذهب المالكي في تطور الشعر العربي الأفريقي

إن الأدب كان ولا يزال المرآة التي ينعكس عليها تفكير المجتمع ويشير إلى مكانة الضعف والقوة فيه وإلى ثقافته وحضارته، والأدب المؤثر والرفيع هو الذي يساير أخلاق مجتمعه وما يعيش أفراده من دين وبيئات وقضايا، وأن المجتمع يطمع دائما إلى أدب يرقى بنفوس أهله وعقولهم، ويسد عنهم هجمات الانحراف والضياع التي تشنها عليهم الجهات المعادية لهم، شريطة أن يتميز هذا الأدب بخاصية بيئته ومميزاته.

فالانتاجات الأدبية العربية في إفريقيا مدينة إلى القرآن من حيث الاقتباسات والتناص والإستشهادات والتفاسير والشروح ومن حيث إثراء ما يرسي لهم القرآن الكريم من أصول التشريع والانتماء إليه في غرض الدعوة إلى الله وإلى الأمر بالمعروف والتحلي بحميد الخصال والاجتناب عن الفحشاء والمنكر والبغي كما هو واضح في التنزيل الحكيم، لقد لعب المذهب المالكي في هذا الميدان دورا هاما، حيث ساهم بكل ما يمتلكه من وسائل في محاربة الجهل والتخلف العقلي، نذكر من هذه الوسائل عل سبيل المثال لا الحصر:

[أ]ـ ميدان الدعوة والصحوة: يقول الشاعر الشيخ آدم عبد الله الألوري

يا رب قد ضقت ذرعا بالمفهوم وقد ... رجوت فضلك أصلا ثم لم أزل
أرجوك والحال لا يخفى عليك على ... ما كان لي من حياة البؤس والعطل
لقد تعلمت علم الدين في لغة ... أنزلت فيها كتاب الذكر والمثل
صرفت فيها حياتي من بدايتها ... إلى أواسطها والنفس في شغل
لكن على غير جدوى في الحياة وقد ... ظلت معيشتنا ضنكا على الفشل
كدرت عيش بني الإسلام يا صمد ... كأنهم في ضلال الدين والخطل
وهاك قوم النصارى واليهود لقد ... نالوا حظوظ حياة قسمة الأزل
أعطيتهم كل خير في الهواء وفي ... بر وبحر وفي سهل وفي جبل
فما لنا غير قرآن وحكمته ... ونقل كل حديث الخاتم الرسل
هل أجبروك على توفير حظهم ... ومنعنا حظنا حتى من العمل
يا خالق الخلق يا رحمان قاطبة ... يا من يرى ما خفي يا عالم الجمل
إني قصدتك بالنجوى التي كتبت ... على الرجاء الذي قد شيب بالوجل
إن كنت من قال أدعو أستجيب لكم ... فارحم عبيدك ذا لنجوى وذا الزلل

وأصلح له الحال وارفع مستواه إلى — أعلى مكانا ت من أعليت في زحل
يسر له العيش والأرزاق مسرعة — يا خالق الخلق أدرك صاحب الأمل

[ب]ـ ميدان التعليم والتثقيف، يقول العلامة عبد الله بن فودي

وهو شقيق الشيخ المجدد، وشاهد عصره الشيخ عثمان بن فودي في هذه الأبيات التي رد بها على أبيات العالم البر ناوي إلى الشيخ وأعوانه، حيث اتهمهم بالبدع الشنيعة في مجالسهم الوعظية بخاصة في اختلاط الرجال بالنساء:

لقد استنكر البر ناوي الماهر على الشيخ بن فودي حضور النساء لوعظه بقوله:

عليك منا تحيات مباركة — شممن مسكا وسكا من يلا قونا
أيا ابن فودي قم فأنذر أولي الجهلا — لعلهم يفقهون الدين والدونا
فامنع زيارة نسوان لوعظك إذ — خلط الرجال بنسوان كفى شيئا
لا تفعلن ما يؤدي للمعايب إذ — لم يأمر الله عيبا كان يؤذينا
إن الممات وما بعد الممات وجهلا — بالعواقب وعظ كان يكفينا
وأبيت المصطفى بج يتممها — في عام رش مع زيد العد يغنينا

قد يكون هذا النص متكاملاً كبنية شكلية، وهو كفعل ودلالة يمثل انقطاعاً عن المعقول في الذهنية الإسلامية، غير أنه لا يستطيع مع ذلك أن يبدع فسحة شعرية إلا من خلال مستوى الصدق والكذب الذي تحقِّقه التراكيب المحدثة، وهذا المستوى ضيق جداً بحيث لا يعتدُّ به في شعرية القول وفنِّيته، مادام لا يخرج عن كونه تقريراً إخبارياً يشرح.

ويقول العلامة عبد الله بن فودي ردا على قصيدة العالم البر ناوي الماهر:

يا أيها ذا الذي قد جاء يرشدنا — سمعا لما قلت فاسمع أنت ما قلنا

نصحت جهدك لكن ليت تعذرنا وقلت سبحان هذا كان بهتانا
إن الشياطين إن جاءوا لمجلسنا هم يبثون سوء القول طغيانا
لسنا نخالط بالنسوان كيف وذا كنا نحذر لكن قلت سلمنا
إن كان ذاك ولكن لا أسلم أن يتركن بالجهل هملا كان إحسانا
إذا ارتكاب أخف الضر قد حتما يكفر الجهل إن ذا كان عصيانا
هذه البلاد وجدنا قومها غرقوا في الجهل نمنعهم أن يفقهوا الدينا
قد قيل تحدث للأقوام أقضية بقدر ما أحدثوا خذ ذاك ميزانا
الحمد لله ذي الإنعام هادينا ثم الصلاة على المختار هادينا
وآله صحبه أبياتنا كملت وعدها حب والتاريخ نشقنا[1]

تصور هذه الأبيات البيئة الأفريقية التي فيها نشأ الأدب العربي الأفريقي، وهي تنعكس على البيئة الأدبية والشعرية والثقافية العربية في إفريقيا، هذه البيئة التي تمثل المنبع والمصدر الثالث للشعر العربي الإفريقي بخاصة والأدب العربي الأفريقي بعامة بعد القرآن الكريم المصدر الأول وانسنة النبوية الشريفة المصدر الثاني.

إن معرفة البيئة التي يعيش فيها الأديب مدخل طبيعي بل ضروري لدراسة الأديب والتعرف إلى الاتجاهات السائدة في أدبه، إذ من المسلم لدى دارسي الأدب أن الأديب الحق لا يستطيع أن يعيش منعزلا عن بيئته بل لا يستطيع أن يحول بين نفسه وبين الاستجابات لمؤثرات هذه البيئة وظروفها، فإن استطاع فإن ذلك نقص وقصور في تكوينه الأدبي.

ونعني بالبيئة هنا البيئة الخاصة والبيئة العامة: البيئة الخاصة بما تدل عليه من انتماء اجتماعي معين للأديب، واتجاه فكري خاص، ونشأة وأسرة

1- قصيدة العلامة مخطوط بمكتبة الباحث عدد الأوراق: 9.
* قار: بلدة قار في بلاد غوبر القديمة التي فتحها الشيخ عثمان بن فودي عندما تأكد على الفساد والرد فيها.

وثقافة، وما لكل من أثر في الأديب محدد، ونعني بالبيئة العامة تلك التيارات المحيطة بالأديب والمجتمع الذي يعيش فيه، والتيارات الاجتماعية والسياسية والأدبية والإسلامية، وما يستطيع أن يؤثر به في الأديب تأثيرا عميقا قويا، لا يمكن لأديب حقا أن يتغافل عنه أو يحول بين نفسه وبيئته، وعلى قدر ما تؤثر البيئة العامة في الأديب نفسه يزداد مكانه عند دراسته كلما استطاع هو أن يؤثر في هذه البيئة العامة وتياراتها.

[ج]ـ ميدان الحث والترغيب في الإسلام، يقول الشاعر رباني زكريا الكيوتي

بشائر الفرح في رمضان قد برزت	في جوت مياك جاء النور للقلب
أنى اتجهت ترى الإسلام مبتهجا	في جوت مياك جاء الشهر بالطرب
وهذه الغبطة الكبرى تظللنا	وقد بدت نعمة القرآن في القرب
فصائمون وعين الله تحرسنا	وقد تفجرت فينا ثورة الحب
لم تبق في جوت أطماع لذي كفر	ما عاد في أرضها أمل المغتصب
فهذه كلمة الإسلام قد رفعت	في جوت مياك هيا صاح للقرن
والفضل يرجع نحو الشيخ مرشدنا	لولاه ما جاها من عجم ومن عرب
فأهل جوت إلى الإسلام نسبتهم	ونهجهم في الصيام فهم خير أب
كانوا مع الله جمعا دون تفرقة	بفضل من هو في الخير لم يغب
هذه البشائر قم يا صاح واقطفها	في جوت مياك جاء النور للقلب(1)

صورت هذه الأبيات ملامح تجربة شعورية عاشها الشاعر في بيئته الطبيعية والثقافية الصوفية الإسلامية، وتجسد انفعالات محنة نفسية كابد أحوالها، وتبرز هذه الملامح والانفعالات في صورتها بالمعاني من تلقاء نفسها وهي معان حسية، لأنها متصلة بالتجربة الشعورية اتصالا وثيقا، وناشئة من

1- ديوان الشاعر، مخطوط.

صميم معاناة الشاعر، كما ينشأ الموج من حركة البحر المتدفقة.

ومن هنا يكاد يكون إجماع بين دارسي الأدب على أن دراسة بيئة الأديب في مستوييها الخاص والعام ضرورة علمية ملحة للتعرف إلى أديب ما في عصر من العصور، وإذا كان للأديب الحق بالتأثر والتأثير، لا يكتفي بأن يتأثر بالتيارات التي تسود مجتمعه، بل يؤثر في هذه التيارات فيبعث في المجتمع بعض القيم التي يدعو إليها ضرورة.

أن الأدب ليس مجرد إعادة لصنع الحياة أو محاكاة لها دون تأثير فيها وإذا كان الأدب كذلك فإن الأديب الحق هو من يتأثر بمجتمعه.

[د]ـ ميدان التاريخ والتحرر، يقول الشاعر السنغالي أحمد عيان سه

يـا جامـع الناس في عـز وفي شرف	وموقظ الناس مـن هون ومـن تلف
فقف بسـنغال والسـودان مشتكيا	مـا دار بينهما مـن خالص الصلف
جيـلان جمعـت الأشـياخ بينـهما	في الشرق والغرب جمع اللام والألف
فسـيغ فيهـا لنـا مـن قبـل ذا وطن	ولي مواطـن فـي أرجاء مـن جلف
وكمـب أسـلافنا حلـوا بهـا وكـذا	في بندلي سلف ناهيك مـن سـلف
مواطـن كلهـا في الأصـل متحـد	وأهلهـا طـالما مالـوا إلى الـترف
فالـكل صـار لديـن الله مـتبعـا	ولـم يمـل أبـدا عـن دينه الحنفي
وإن تفرقكـم بالقـول ألـسـنة	فالدين يجمعكم في البيت ذي الغرف
اليـوم فرقـت الأعـداء بينهمـا	وليـس جمعهمـا يومـا بمؤتلـف
قـد زيـن الله بـالإسـلام بهجتنـا	والديـن قـوى بها ماكان من ضعف

يحاول الشاعر في هذه الأبيات أن يزرع في نفوس هذا الجيل الحاضر الشعور بالروابط الأخوية بينه وبين الجيل السابق، ويجعله يدرك أن ما يخوضه من معارك طاحنة في مقاومة الاستعباد حلقة في سلسلة متصلة، ثم بوجود مراكز علمية وتجارية وحضارية قامت الحركة العلميّة، والثقافية، والدّينيّة،

والتجارية، والسياسيّة في كل من أغادس و«تنبُكتُو، وغاو، وجِنّي، وكانو، وكاشنه»، وغيرها، وبتأليف شعوب المنطقة باللغة العربية في مختلف العلوم والفنون زاد الأمر تحسنا وازدهارا[1]، شهد هذا الازدهار نوعا من التدهور في أغلب المناطق بسقوط آخر الإمبراطوريات الإسلامية الأفريقية في القرن السادس عشر الميلادي، وهي كانم بورنو بعد سنغاي ومالي وغانه.

ولما دخل الاستعمار الفرنسي والإنجليزي إلى غرب إفريقيا، كان من أبرز أهدافهما مقاومة اللغة العربية والإسلام، وقد نجحت هذه القوى الظالمة في إقصاءها عن الدّوائر والمدارس الحكومية، لكن اللغة العربية بقيت صامدة يتعلمها المسلمون، ويتعلمون بها علوم الإسلام في حلقات علمة في المساجد، وفي الكتاتيب، وفي بيوت العلماء والسلاطين، واضطرّ الاستعمار تحت الضغط الشعبي إلى قبول تعلمها وتدريسها في بعض المناطق بالقارة، وإلى إنشاء مدارس ابتدائية مزدوجة تحت إدارته[2].

وعلى الرغم من المحاولات المتعددة لطمس الهوية الأفريقية من قبل القوى الاستعمارية الغربية بكل وسائلها واستعدادها المادي والمعنوي، فإن الحضارات الأفريقية الأصيلة المتمثلة في الإسلام تمكنت من الوقوف أمام إرادة تلك القوى البغيضة.

1- حركة اللغة العربية وآدابها في النيجر، د.شيخو أحمد سعيد، دار المعارف بالقاهرة، ط2، ص: 18- 19.
2- مجلة الدراسات اللغوية، العدد2، 1999م، ص: 235- 236.

الخاتمة ونتائج البحث

بهذا نكون قد وصلنا إلى نهاية هذا البحث الذي لا ندعي فيه الكمال، لأن القصور ن طبية الإنسان، فهو سمة في جميع أعماله، ولعل القارئ يلاحظ في هذه الدّراسة بداهة مقدار الجهد المبذول الذي كان يفوق إمكانياتي، وقد يلاحظ الدارس أيضا في هذا المجال أن الأدب العربي الأفريقي مهما يتوغل في التجديد يظل مرتبطا على نحو ما ببعض المظاهر الفنية في تراث الأدب العربي القديم، ومع أن الأدب الوجداني في هذه المرحلة قد تحقق له وضع عصري متميز، فإن كثيرا من سمات الأدب القديم ظلت تبدو فيه عند هذا الأديب أو ذاك.

تبين لنا بكل وضوح في نهاية هذا البحث أن الشعر العربي الأفريقي واكب خطوات الإسلام في القارة الأفريقية وظل يتطور مع اللغة العربية حتى أصبحت لغة الإدارة رسمية في ممالیکها القديمة .. فذكر البكري أن ملك -غانة- قد استعان قبل إسلامه بخبراء الإدارة والتراجمة من المسلمين.. كا رأينا دولة -مالي- أيضا تتخذ العربية لغة رسمية وكذا دولة - سنغاي- ودولة -وكوتو-، وأن الفرية الاستعمارية التي تزعم أن حضارة غرب إفريقيا مرتبطة بالغرب مزيفة ومنقوصة، ذلك أن الإسلام هو العامل الأول والأخير في صبغ هذه المنطقة بالحضارة الحقيقية والرقي السلوكي، وذلك عبر رفيقتها وهي اللغة العربية بعلومها وفنونها الأدبية التي سايرت الحياة اليومة ن آلام ورور وأحداث ومناسبات، ومن ثم فإن المذهب المالكي ساند الإسلام في انتشاره بالعدد الهائل من القصائد التي دافع بها هؤلاء الشعراء عن دينهم وعقيدتهم في كل فترة ومناسبة.